ضوابط في فهم سيرة

المُصطفىٰ ﷺ

لفضيلة الشّيخ

صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

-حفظه الله تعالىٰ-

اعتنىٰ بها

سالم بن محمَّد الجزائري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حقَّ الحمد، والثناء له -جلّ وعلا- كلُّه، فهو وليُّ الفضل وهو وليّ الإحسان وهو وليّ النعمة، ومن أعظم نعمه علينا أنْ بعث محمَّدا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- إلينا هاديًا وبشيرًا ونذيرًا، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[1]، ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾[2].

وأشهد أنْ لا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمَّدًا عبد الله ورسوله وصفيُّه وخليله، به أزال اللهُ -جلّ وعلا- الشِّرك وجُنده، وبه أقام الله -جلّ وعلا- التَّوحيد وأهله، وبه أبصر النَّاس بعد العمىٰ، وهُدِيَ النَّاسُ بعد الضَّلالة، فما أعظم مِنَّته -جلّ وعلا- علينا ببعث محمد -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وما أعظم مِنَّة محمَّد -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ

(١) سورة: الأنبياء.

(٢) سورة: الأحزاب.

وَالسَّلَامُ- علىٰ أمَّته فإنَّهم لو فدَوه بأنفسهم وأولادهم وأهليهم وأموالهم ما قضوا حقَّه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، أليس هو الذي وجدنا علىٰ شفا حفرة من النَّار فأنقذنا منها.

صلَّىٰ علىٰ نبيَّنا محمَّد كفاء ما أرشد وعلّم وبيّن، ونشهد أنَّه بلَّغ الرِّسالة وأدَّىٰ الأمانة، ونصح الأمَّة، وجاهد في الله حق الجهاد، وتركنا بعده علىٰ بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده ﷺ إلاّ هالك.

وصلَّىٰ الله وسلم علىٰ صحابته الذين نصروه وعزَّرُوه وأيدوه، وصلَّىٰ الله علىٰ من تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدِّين، وعنَّا معهم برحمة أرحم الراحمين.

أمَّا بعد..

فأسأل الله -جلّ وعلا- أنْ يجعلني وإياكم ممن أعطاه قلبا خاشعًا ودعاءً مسموعًا.

اللّهم اجعلنا ممن تخشعُ قلوبهم لك وتلين أفئدتهم لذكرك.

اللّهم وهيّئ لنا من أمرنا رشدًا، فلا حول لنا ولا قوَّة إلَّا بك، نعوذ بك من إرادة العلوِّ في الأرض والفساد.

ونسألك أنْ تُعيذنا من العِيّ، وأنْ تعيذنا من خطل الرّأي ومن البُعد عن الصَّواب.

اللّهم فوفقنا فأنت وليّ التوفيق ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾[1].

ثم إنِّي أشكر في فاتحة هٰذه المحاضرة الإخوة الكرام في مكتب الدَّعوة والإرشاد في محافظة الخرج علىٰ أنْ دعوا لهٰذه المحاضرة واهتمُّوا بها، وليس هٰذا بغريب فهم حريصون علىٰ الخير ويمثِّلهم فضيلة الأخ الشَّيخ عبد الرَّحمٰن الصَّغير وكذلك فضيلة الأخ الشَّيخ إمام المسجد وكذلك بقية الإخوة الكرام.

فأسأل الله -جلّ وعلا- لهم المزيد من فضله، وأنْ يتقبَّل ما بذلوا وما انتقلوا من أجل نشر الحق والهدىٰ.

ثم إنّ هٰذه المحاضرة موضوعها (**ضوابط في فهم سيرة المصطفىٰ** ﷺ)، وهٰذه المحاضرة ليست موعظة من المواعظ، وإنما هي محاضرة تأصيليَّة في موضوع سيرة النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

---

(١) سورة: الإسراء، الآية (٩٧).

فإذن ربما انتفع منها الجميع وخُصّ بالانتفاع بها من كان له مساس وله صلة بالعلم والسنة والسيرة وبالدعوة والإرشاد.

ولا شك أنّ سيرة المُصطفىٰ ﷺ بها اهتمّ العلماء قديمًا وحديثًا؛ وذلك لأنّ بهدي المصطفىٰ ﷺ تتبيّن الأشياء، وقد قال لنا جلّ وعلا: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1].

فالاهتمام بالسِّيرة لابدّ منه؛ لأنّ بالسِّيرة وبالاهتمام بها معرفةَ أحواله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- من ولادته إلىٰ وفاته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وبالسِّيرة يعلم المُسلم ما كان عليه النَّبي ﷺ وصحابته من نشر الدِّين، وما كابدوا فيه، وأنّهم بذلوا ما بذلوا، وتركوا الأمّة بعدهم علىٰ أمر واضح بيِّن، ولم ينتشر الإسلام بسهولة؛ بل بذل فيه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بتأييد من ربه جلّ وعلا، وبذل فيه أصحابه الكرام ما بذلوا، وهٰذا يظهر لك في السِّيرة.

---

(١) سورة: الأحزاب، الآية (٢١).

ومن أوجه الاهتمام بالسِّيرة أيضا أنّ معرفة سيرة المصطفىٰ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وإنّ معرفة سيرة الصَّحابة معه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- يبعث في قلوب أهل الإيمان القوّة في الإيمان والقوة في اليقين وأنّهم مهما تكالبت عليهم الأمور ومهما قوي الشَّيطان وجندُه فإنّ لهم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة وإنّ لهم في الصحابة الكرام أسوة حسنة، فقد شكا بعض الصَّحابة للنَّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ما يلقىٰ من شدة قريش عليه، فقال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَىٰ رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّىٰ يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَىٰ حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ، وَالذِّئْبَ عَلَىٰ غَنَمِهِ ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»[1]، وهٰذا يُبيّن أنّ الحق ليس بكثرة النَّاس، وأنّ المؤمن إذا حصل له ما حصل من كيد الشَّيطان أو من كثرة الشَّهوات أو من كثرة المغريات فإنه يبعثه

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٤٣) من حديث خباب بن الأرت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ذلك علىٰ الاستمساك أكثر وأكثر بدين الله جلّ وعلا؛ لأنّ الصَّحابة رضوان الله عليهم ما تركوا دينهم، ولم يتركوا توحيد الله، ولم يتركوا البراءة من الشِّرك، ولم يتركوا ما آمنوا به مع عظم ما أصابهم عليهم رضوان الله، فكيف بحال أهل هٰذا الزَّمان الذين ربما تركوا شيئًا من الدِّين لبعض المغريات.

النَّظر في السِّيرة وقراءة السِّيرة يبعث في المؤمن قوة اليقين وقوة الاستعداد للثبات علىٰ دين الله، وكذلك يبعث في قلب المؤمن قوة العزَّة في الإسلام وأنه عزيز بتوحيد الله -جلّ وعلا-، وعزيز بما قام في قلبه من معرفة الله والعلم به والإيمان بمحمد -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وبما أنزل الله جلّ وعلا علىٰ رسوله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وهٰذا من ضمن فوائد كثيرة يستفيدها كلُّ مؤمن بالنظر في سيرة المصطفىٰ ﷺ.

إذن فالأصل أنّ قراءة السِّيرة ليست قراءة قصص ولا حكايات، وإنَّما هو قراءة عِظة واعتبار؛ لأنّ بالسِّيرة أخْذ

---

(١) سورة: المنافقون، الآية (٨).

الفوائد وأخْذ ما ينفع المؤمن ويبعث فيه أنواعًا من الخير والهدىٰ والاستمساك بالحق؛ ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1].

تنوّعت اهتمامات أهل العلم بالسِّيرة، وذلك لعظم شأنها.

والسِّيرة المقصود بها: ما أُثر عن النَّبي ﷺ وعن أصحابه وعن التَّابعين وعمّن بعدهم من أهل العلم في وصف حال سَيْر النبي ﷺ وحال طريقته وهيئته منذ وُلد -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- إلىٰ أنْ توفاه الله جلّ وعلا.

فالسِّيرة -إذن- هي حكاية لما كان عليه النبي ﷺ من حين ولادته إلىٰ أنْ توفاه الله جلّ وعلا، فيها بيان ما حصل له من ولادته، وما كان في ولادته من ظهور بعض المعجزات، وظهور بعض الإرهاصات لمبعثه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وذِكر رَضاعه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وذِكر أحواله وأمه وأخواله وأشباه ذلك، وذِكر هديه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-

---

(١) سورة: الزخرف.

وسيرته في صغره حتىٰ بعثه الله جلّ وعلا، وما كان يتّصف به قبل المبعث من أنواع الأخلاق والشَّمائل.

كذلك سيرتُه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- حكاية لحاله منذ بعثه الله جلّ وعلا، فبلَّغ دعوة الله، وصبر علىٰ ذلك، وما ناله من الأذىٰ، وكيف بلَّغ، والسُّبل التي اتخذها للبلاغ، إلىٰ أنْ هاجر إلىٰ المدينة، ومن مهاجره إلىٰ المدينة وتأسيسه لدولة الإسلام الأولىٰ إلىٰ أن توفاه الله جلّ وعلا، ويُدخل فيها عددُ من أهل العلم ما كان بعد ذلك من سيرة الخلفاء الرَّاشدين وما حصل لهم من أنواع الفُتوح.

إذن فالسِّيرة طريقة وهيئة، والسِّيرة أيضا مأخوذة من السَّيْر: سار يسيرُ سيرًا؛ يعني ما سار عليه النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وقد جاء في القرآن ذكر السيرة بمعنىٰ الطريقة والهيئة في قول الله جلّ وعلا: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾[1].

فالسِّيرة -إذن- تشمل طريقة السير وتشمل الهيئة التي كان عليها السِّير، ولذلك تُجمع السِّيرة علىٰ سِيَر، ويُذكر فيها

---

(١) سورة: طٰه.

أنواع المغازي والفتوح، ويُذكر فيها أنواع ما حصل لـه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وما حصل لصحابته من بعده.

فإذن السِّيرة لها معنًىٰ لُغوي ولها معنىٰ اصطلاحي كما ذكرتُ لك.

ودرج العلماء علىٰ أنّ المراد بالسِّيرة حين تُذكر السير ما دُوِّن في كتب مخصوصة أسموها كتب السِّيرة وكتب السِّير، وهٰذا يجعلنا نفيضُ في أنّ الكتابة في سيرة المصطفىٰ ﷺ وفي مغازيه كانت متقدِّمة في الزَّمن الأول:

فذكر العلماء أنّ أبانَ بن عثمان بن عفان ابن الخليفة الرَّاشد هو أول من دوّن سيرة المصطفىٰ ﷺ ودوّن مغازيه، وكانت وفاة أبان -رحمه الله تعالىٰ- سنة خمس ومائة (١٠٥هـ)، وكان أخذ عن عدد كبير من الصحابة، وأخذ عنه عددٌ كبير أيضا من التابعين.

وممَّن شُهر أيضًا برواية السِّيرة وتتبُّعها عروة بن الزبير بن العوام، فقد كان إمامًا في المغازي، وله مغازٍ ألَّفها وجمعها باسم مغازي عروة، وقد جُمع بعضها وطبع.

وكذلك ممن اهتم بالسيرة ابن شهاب الزهري الإمام المعروف سيد المحدثين في زمانه، جمع في السِّيرة كتابًا، وفي

المغازي كتابًا، في ما ذكره له عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالىٰ.

وكذلك ممن كتب في السيرة من الأولين -من التابعين- عاصم بن عمر بن قتادة، وغيره من ثقات أهل العلم في القرن الأول وفاتحة القرن الثاني.

بهٰذا يتبيّن أنّ كتابة السِّيرة كانت متقدمة جدًّا، ولهٰذا صار أهل العلم بعدهم يأخذون مأخذ التَّابعين في العناية بالسير والعناية بالمغازي، فقد جمع ما سمع من بعض هؤلاء جمعه العالم المعروف محمد بن إسحاق المدني في كتاب "السير والمغازي" والذي قيل: إنه ألفه بإشارة من أبي جعفر المنصور لما زار ابن إسحاق بغداد فأشار أبو جعفر إلىٰ ابنه وقال لابن إسحاق: أتعرف هٰذا؟

قال: نعم هٰذا ابن أمير المؤمنين.

فقال له: صنّف له كتابًا فيه ذكر الأخبار من خلق آدم عليه السلام إلىٰ يومنا هٰذا.

فكتب ابن إسحاق ذلك، وكتاب ابن إسحاق رُوي عنه وانتشر بعده -رحمه الله تعالىٰ-، وهو إمام في السِّير اجتمع لديه ما تفرّق فيمن قبله من التابعين الثقات.

وإذا كان كذلك فإنّ كتاب ابن إسحاق لم يوجد كاملاً في زماننا هٰذا، وإنَّما وُجِد من مغازي وسير ابن إسحاق ما انتقاه ابنُ هشام العالم اللّغوي المعروف، وهٰذا الانتقاء أجمع العُلماء علىٰ حُسنه وعلىٰ أنه استخلص من سيرة ابن إسحاق ما أثني علىٰ مؤلفه به، وهو لا يروي السيرة عن ابن إسحاق مباشرة، وإنما يرويها بواسطة رجل عن ابن إسحاق، وهٰذه السيرة هي المعروفة الآن بـ"سيرة ابن هشام".

وهٰذا تطور في أهل العلم فكتب في السير عدد:

كتب ابن حزم في السيرة وسماها: "جوامع السيرة".

وكتب ابن سيد الناس سيرة.

والعلماء تتابعوا علىٰ كتابة السير، ومعتمدهم فيما ذكره ابن هشام عن ابن إسحاق، أو فيما ذُكر في غير ذلك من المغازي.

كذلك من الذين اهتموا بكتابة السير الواقدي، والعلماء منهم من يأتمنُه ويثني عليه في المغازي، ومنهم من يقول هو في المغازي كشأنه في الحديث لا يقبل حديثه، ومغازي الواقدي غير موجودة الآن؛ يعني فيما ذكر من سيرة النبي – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–، واعتمدها عدد من أهل العلم.

والصَّـواب أنّ الواقـدي لـيس بثَبْـت فيمـا ينقـل، بـل ربمـا حصل له من الخلط في الروايات والزيـادات مـا لا يعـرف عـن أهل العلم، فـلا يُقبـل مـن حديثه في المغـازي مـا تفـرّد بـه عـن العلماء سيّما ما كان معارضًـا لأصـل مـن الأصـول أو مـا كـان مخالفا لما دلّ عليه كلام أهل العلم في السِّير.

وممَّن كتب أيضا في السير ابـن سـعد صـاحب الطبقـات في أول الطبقات كما هو معروف، وجماعة كتبوا في ذلك.

وهـٰذه هـي التـي تسـمىٰ كتـب السيرة أو كتـب السير تتـابع العلماء فيها إلىٰ زماننا هـٰذا.

وهنـاك كتابـة للسِّـير بطريقـة أخـرىٰ، وهـي طريقـة أهـل الحديث، فإنهم اعتنوا بسيرة النبي ﷺ وبـذكر أحوالـه ومغازيـه وأشباه ذلك فيما أوردوه في كتـب الحـديث، فتجـد في صـحيح البخـاري رحمـه الله كتـاب المغـازي، وتجـد في مسـلم السـير، وتجـد في أبـي داود كـذلك، وهكـذا في بعـض أخبـارٍ وربمـا طُوِّلَت.

وكذلك اعتنىٰ بها أهل الحديث في مصـنفات مفـردة ذكـروا فيها أسانيدهم فيما يتعلَّق بالسير ولكن فيها ما يصـح وفيهـا مـا يُنكر، وكما قال الحافظ زين الدين العراقي:

ولـيعلم الطالـبُ أنّ السِّـيرَ تجمع ما صـحَّ ومـا قـد أُنْكِـرَ

فصنّف البيهقي كتاب ''دلائل النبوة''.

وصـنَّف أبـو نعـيم الأصـبهاني أحمـد بـن عبـد الله العـالم المعروف صنَّف ''دلائل النبوة''.

وصنف الفريابي ''دلائل النبوة''.

فأهل الحديث اعتنوا بكتابة السِّير من جهتين:

الجهـة الأولـىٰ: مـا ضـمنوه في مصـنفاتهم مـن الصـحاح والمسانيد من ذكر السير سواء كانت مبوبة أو لم تكن مبوبة.

وكذلك ما أفردوه من التآليف في هـٰذا في ذكر دلائل النبوة.

وكما ذكرنا أنّ كتب السِّير ليست معتنية بالصَّحيح، وإنما يذكر فيها ما نُقل في السِّيرة، ولهـٰذا قال الزين العراقي فيما ذكرت لك:

ولـيعلم الطالـبُ أنّ السِّـيرَ تجمع ما صـحَّ ومـا قـد أُنْكِـرَ

ففيها الصحيح وفيها المنكر وهـٰذا أمر بيّن، فإنّ سيرة ابن إسحاق مثلا فيها من الصحيح كثير وفيها من المنكر الكثير، فهـٰذا من جهة ما اشتهر من ذكر مصادر السِّيرة.

وإذا كان كذلك فالذي ينبغي تحقيقًا لمقام السيرة أنْ تُضبط مصادر السيرة وأنْ تؤخذ السيرة بضابط مهم في ذلك، وهو جواب السؤال: كيف نأخذ السيرة بطريقة مأمونة؟

☚ أعظم ما تؤخذ منه سيرة المصطفىٰ ﷺ القرآن؛ لأنّ: في القرآن ذكر حياته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- صغيرًا ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾[1].

وفيها ذكر حالته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قبل البعثة.

وفيها ذكر مبعثه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وفيها ذكر مجيء الجن إليه يستمعون القرآن.

وفيها ذكر حالته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- مع المشركين ودعوته لهم.

وكذلك ما حصل من الهجرة، ثم في القرآن ذكر المغازي جميعا؛ فغزوة بدر الكبرىٰ في سورة الأنفال، وغزوة أحد في سورة آل عمران، وغزوة الخندق -الأحزاب- في سورة الأحزاب، وفتح مكة وصلح الحديبية في سورة الفتح، وهكذا، وحنين وتبوك في سورة براءة، إلىٰ غير ذلك.

---

(١) سورة: الضحىٰ.

فإذا جمع طالب العلم ما تكلَّم به المفسرون من الصَّحابة فمن بعدهم علىٰ هٰذه الآيات حصل علىٰ مصدر قوي معتمد علىٰ معاني القرآن، وهٰذا اجتهد فيه طائفة من أهل العلم، لكن لم يُجمع فيما أعلم جمعًا كاملًا بحيث تكون السيرة علىٰ ما ذكره المفسرون، حاول بعض المعاصرين ذلك واجتهد فيه لٰكن لم يجمع كلام المتحققين من المفسرين علىٰ تلك الآيات.

فإذن الذي ينبغي في السيرة أنْ نعتمد علىٰ القرآن فيها وما ذكره المفسرون في ذكر معاني الآيات التي فيها سيرة المصطفىٰ ﷺ.

☚ ثم المصدر الثاني: الأحاديث الصحيحة خاصة في الصَّحيحين أو ما صح في غيرهما من الأحاديث التي فيه ذكر سيرة النَّبي ﷺ، فإذا قورنت هٰذه الأحاديث بما ذكر في كتب السِّير وجدنا أنّ بعض ما في كتب السير ليس بصحيح، في مثل مثلا تاريخ بعض الغزوات وبعض الأحوال وقصة الإسراء والمعراج، وأشباه ذلك كثير.

فالمصدر الثاني المُعتمد بعد كتاب الله -جلّ وعلا- وتفسيره أنْ ننظر في الأحاديث، وهٰذه الأحاديث فيها ما لم

يـذكر في كتـاب الله -جـلّ وعـلا- واعتمـد عليهـا الصـحابة -رضوان الله عليهم- والتَّابعون فيما فسَّروا من آيات القرآن علىٰ نهج السَّلف في التَّفسير؛ في تفسير القرآن بالسُّنَّة.

فإذن الاعتماد علىٰ ما في كتب الصَّحيح وكتب الحديث من مصادر السِّير هٰذا أَوْلىٰ وأبعد عن الخلط وما لا يصحُّ في السِّير، ولهٰذا دعا عدد من أهل العلم إلىٰ كتابة صحيح السيرة النبوية، وقد كتب بعض المعاصرين في ذلك؛ لكنهم رقَوا جبلا عاليًا عليهم؛ لأنّ هٰذا الأمر يحتاج إلىٰ علم بالحديث؛ متنًا وإسنادًا، وإلىٰ علم بالتفسير، وإلىٰ علم باللغة، وإلىٰ علم بما في كتب السُّنة، وإلىٰ ما في كتب العقيدة، إلىٰ آخر ذلك مما فقده بعض من كتب في ذلك.

☚ من المصادر أيضا التي تعتمد: كتب السِّيرة التي ذكرنا وكتب التاريخ، فنجد مثلا أنّ تاريخ ابن جرير يحوي كثيرا من أخبار سيرة المصطفىٰ ﷺ بالأسانيد؛ لكن هٰذه نأخذ منها ما لا يتعارض مع ما جاء في القرآن وفي تفسيره ومع ما ثبت في سنَّة المصطفىٰ ﷺ، فإذا لم نجد الحَدَث لا في الكتاب ولا في السنة فإنّ أخذه من كُتُبِ السِّير لا بأس به؛ لأنّها أرفع درجة بالاتفاق من أحاديث بني إسرائيل، وقد قال لنا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ

وَالسَّلَامُ-: «**حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ**»،[1] فإذا لم يكن ما في كتب السيرة معارضًا للكتاب والسنة فإنَّه لا بأس من أخذه ومن الاعتماد علىٰ ما جاء فيه، وهكذا كان أهل العلم، لهٰذا نرىٰ أنّ ابن كثير -رحمه الله- في أوائل كتابه "البداية والنهاية" كتب سيرة طويلة للنَّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أُفردت في أربع مجلدات، وقد جمع فيها ما بين ما ذكره أهل السِّير وما ذكره أهل الحديث وما جاء في الآيات، ولكنها أيضا تحتاج إلىٰ بعض مزيد من التَّمحيص.

إذن فهٰذه هي المصادر العامة للسِّيرة.

وإذا تبيّن ذلك فتلحظ فيما سُقنا أنّ أهل الحديث وأهل الأثر والمعتنون بعلوم سلف الأمة هم الذين اعتنوا بسيرة المصطفىٰ ﷺ، فبعض الناس يقول: إنّ المعتنين بالحديث والأثر والمعتنين بطريقة السَّلف ليس لهم عناية بالسِّيرة. وهٰذا ليس بصحيح، بل إنّ الذين اعتنوا بسيرة المصطفىٰ ﷺ من حيث الإثبات، ومن حيث الانتقاء، من حيث الفقه والدِّلالة هم أتباع سلف هٰذه الأمة، وإذا صار هناك قُصور

---

(١) أخرجه البخاري (ح٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ممن اعتنىٰ بالحديث والأثر فإنّ هٰذا ممَّا ينبغي علاجه؛ لأنّ الاهتمام بالسيرة به يحصل للمرء المؤمن ولطالب العلم أنواع من العلوم والفوائد ما يحصِّلها إلاّ إذا قرأ السيرة، ويقوم في قلبه الاعتزاز بدين الله والفرح بنصرة هٰذا الدِّين في أوَّل الأمر ويقوم في قلبه عظم المحبة للنَّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ولأصحابه بما يزيد المؤمن من الاقتداء بهم والسَّيْر علىٰ منوالهم.

نجد أنّ أئمة هٰذه الدَّعوة كالإمام المجدِّد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- اعتنىٰ بالسِّيرة أيضا، فكتب كتابا في سيرة المصطفىٰ ﷺ مطبوع موجود، كذلك ابنه الإمام الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب له كتاب أيضا في سيرة المصطفىٰ ﷺ، وجعلوا في تضاعيف نقلهم للسِّيرة ذكر الفوائد وخاصة الفوائد الدّعوية، وسيأتينا ذكر تأصيل فيما يتعلَّق بالفوائد الدّعوية في سيرة المُصطفىٰ ﷺ.

إذن فالعناية بالسِّيرة إثباتًا وفقهًا واستنباطًا كان عليه علماؤنا، فالاهتمام بها من سِمَة طلاب العلم الجادين فيه ومن سمة المحبين للخير بعامة، والنَّاس ترقيق قلوبهم وبعث الهمة في نفوسهم وبعث العزَّة في نفوسهم يكون بطرق

صحيحة، ومن ذلك ذِكر قَصص السِّيرة، وذكر ما جرىٰ فيها من حوادث ومن أحكام.

نظر النَّاس والمؤلفين والدَّارسين للسيرة متنوِّع، وهـٰذا ما يمكن أنْ نسميه أو أنْ نعنون له بمدارس تناول السِّيرة؛ سيرة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فإنّ سيرة المصطفىٰ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- تنوّعت المدارس في تناولها وفي التَّأليف فيها وفي الباعث علىٰ الاهتمام بها إلىٰ بضع مدارس:

◆ فأوَّل تلك المدارس **المدرسة اللُّغويَّة**: وهـٰذه المدرسة اهتمَّ فيها أصحابها بأنْ يتناولوا السِّيرة بالاهتمام بما في السِّيرة من لغة صحيحة، فإنّ من نقل السيرة من مثل التابعين ومن مثل ابن إسحاق فإنَّهم نقلوها بلغة صحيحة، وما أوردوا في السيرة من أشعار كثيرة وأخبار وخطب للعرب وحكايات وخطب للصَّحابة، بل وأقوال في ذلك، هـٰذا كله من جهة اللغة معتمد.

ولهـٰذا اعتنىٰ بسيرة ابن إسحاق ابنُ هشام -رحمه الله تعالىٰ- وكان لغويًّا متمكنا فاعتنىٰ بالأشعار التي أوردها ابن إسحاق، فأورد من الأشعار في ملخصه -المسمىٰ بسيرة ابن

هشام- أورد منها ما يتّفق وما لا يؤخذ عليه في إيراده وترك أشياء من ذلك، وأتبعها بشرح غريبها وبالعناية بها.

كذلك سيرة ابن هشام تناولها العلماء الذين اعتنوا بهٰذا النَّوع من الاهتمام بالسيرة -الاهتمام اللغوي-، وتناولوها بالشرح وبالتفصيل، وأصل قصدهم الاعتناء باللغة وقد يضيفون إلىٰ ذلك اعتناءً بجوانب أخرىٰ ممّثل الحافظ السُّهيلي في كتابه "الروض الأنف" الذي جعله شرحًا علىٰ سيرة ابن هشام فيما أشكل منها، وكالحافظ أبي ذر الخُشني في "تفسير غريب السيرة" وكلا الكتابين مطبوع، أمَّا كتاب السُّهيلي فكبير وأما كتاب أبو ذر الخُشني فمجلَّدة لطيفة.

هٰذا نوع من الاهتمام، وهٰذا تجد منه أنّ كثيرين ممن اهتموا بالأدب واهتموا باللغة يعتنون بالسِّيرة، فينبغي التفريق حين ترىٰ المصنف في السيرة ما تصنيف مصنِّفه من جهة المدرسة، فإذا علمت أنه لغويٌّ بحَّاثة، وأنّ عنايته باللُّغة فإنك تبحث فيه ما تحتاجه من ذكر غريب السِّيرة وما شابه ذلك، فإنّ له عناية بهٰذا تفوق العناية بغيره من علوم السيرة.

الأدباء يهتمُّون بالسِّيرة ومن المعاصرين من بلاد شتىٰ من ألف في السِّيرة، وتجد أنّ أكثرهم أدباء، وذلك لأنّ الاهتمام

بالسِّيرة ديدن الأدباء؛ لأنّ فيه رفعة الحصيلة الأدبية وقوة البلاغة وكثرةَ الشَّواهد عند المعتني به، فصنَّف كثيرون في السِّيرة متَّجهين إلىٰ هٰذا الاتِّجاه؛ في تقوية الأسلوب الأدبي، ونقل السيرة علىٰ هيئة أسلوب أدبي رفيع يقوِّي ملكة الأديب أو دارس الأدب في هٰذا الباب.

وهٰذه المدرسة لها تفاصيل وحديث يطول ذكره في ذكر حسناتها والمآخذ عليها.

◆ النَّوع الثَّاني من المدارس في تناول السِّيرة **مدرسة القوميين**: فإنّ المعتنين بالعرب والآخذين بالتَّعصُّب للعربية للعرب وللعرق العربي رأَوا فوجدوا أنّ أمجاد -كما يزعمون- من قبلهم كُتبت سِيرهم، وأنّ مجد العرب لم يبتدئ بالإجماع إلَّا بمحمد -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فبه رفعت العرب رأسها ورفعت العرب شَأوها، كما قال جلّ وعلا: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[1]، وهٰذا لأنّ به رفع منار العرب.

---

(١) سورة: الزخرف، الآية (٤٤).

فتناولوا السِّيرة وكتبوا فيها من جهة أنّ كلَّ الأمم المتحضرة كاليونان وفارس والرُّوم إلىٰ آخره، لهم في ذكر عظمائهم سيرٌ صيغت بالصِّيغة الأدبية، وكان المقصد منها تمجيد هٰذا العرق، فتناول السِّيرة عدد من المعاصرين ومن المتقدمين لرفع العرق العربي ولرفع العرب عمَّن سواهم.

وهٰذه فيها مدارس مختلفة من مثل مدرسة طه حسين ومن نحا نحوه ممن كتبوا في السيرة، فإنّهم لم يكتبوا في السيرة لنصرة دين محمَّد -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وإنَّما كتبوا في السيرة بالنظر إلىٰ عرقية عربية؛ بل إنّه كما ذكر مثل طه حسين في مقدمة كتابه "علىٰ هامش السِّيرة" ذكر أنّ السِّيرة هٰذه التي كتبها فيها أشياء لا يقبلها العقل ولا يقبلها الفؤاد؛ لكن لا تصلح حياة الناس إلاّ بنوع من الخرافات ونوع من الأحاديث التي تكون لهم كالاسترواح وتكون لهم كالمُريح والمهيِّئ لهم لسماع الحق؛ يعني أنها قصص وحكايات ليس لها أصل وليس لها أهمية، ذكر في مقدمة كتابه أنه بعثه علىٰ ذلك -علىٰ هٰذا التأليف- أنَّه وجد لليونان إلياذة ولهم أمجاد، وللفرس أمجاد فيما صنَّفوا في تاريخ

عظمائهم، ورأىٰ أنَّه لابد من التَّصنيف في هـٰذا والكتابة فيه فكتب ذلك.

إذن فالنَّظر في تأليف المؤلِّف ينبغي أنْ يسبقه تصنيف مدرسته؛ هو من أي مدرسة في السِّيرة، فإنَّه لو قرأ الناس كتابًا من كتب أصحاب المدرسة القومية في السِّيرة لأصابهم نوع من الخلل في فهم سيرة المصطفىٰ ﷺ، بل وربَّما لم يؤمنوا بمعجزاته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وبآياته وبراهينه علىٰ اعتبار أنَّها حكايات وأنَّه ليس لها رصيد من الصِّحة والواقع وإنما هكذا قيل.

◆ المدرسة الثالثة من المدارس التي اعتنت بالسيرة **مدرسة العلماء والفقهاء**: وهؤلاء -من المحدِّثين والفقهاء- اعتنوا كثيرًا أيضًا بالسِّيرة فكتبوا السِّيرة مهتمِّين بما فيها من أحكام، وما فيها من بيان للعقيدة، وبيان للأحكام الفقهية، وهـٰذا ظاهر لك فيما اعتنىٰ به أئمَّة الحديث كالبخاري وغيره، والأئمة من بعده؛ أئمَّة المحدثين كالحافظ البيهقي في دلائل النبوة، وكذلك من المتأخِّرين شيخ الإسلام ابن تيمية فإنّه نظر إلىٰ السيرة نظرًا فقيها وفصّل كلامه، وما فرَّقه من الكلام علىٰ السِّيرة العلامة شمس الدين ابن القيم في كتابه "زاد

المعاد في هدي خير العباد'' فإنَّه تناول السيرة بذكر التحقيق فيها، جمع بين ما جاء في القرآن وما جاء في السُّنة وكلام أهل السير، ونظر فيه نظرا فقهيًّا، ونظر فيه نظرا عقديًّا، وتبعه علىٰ هـٰذه الطريقة الإمام المجدد شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهاب وتلميذه وابنه عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، فإنّهم كتبوا في السِّيرة ناظرين إلىٰ العلم وجمعوا فيها ما بين مقتضىٰ العلم ومقتفىٰ القصَّة أو مقتضىٰ السِّيرة.

ولا شكّ أنّ هـٰذه المدرسة هي أنفع المدارس وأعظمها كما سيأتي بيانه إنْ شاء الله تعالىٰ.

◆ المدرسة الرَّابعة **المدرسة الدَّعوية المعاصرة**: فإنّ المعاصرين من الدعاة علىٰ اختلاف انتسابهم في الدعوة اعتنوا بالكتابة في السِّيرة علىٰ مختلف المشارب، وعَنَوا بكتابتهم في السِّيرة أنْ يؤصلوا جوانب دعوية تهمهم وتهم الفئات التي ينتسبون إليها من طريق السيرة، فإنّ في السيرة ما يمكن أنْ يكون دليلا بمجرده علىٰ مسائل كثيرة في الدَّعوة، وقد يكون ذلك الاستدلال صوابا وقد يكون خطأً، فظهرت في هـٰذا العصر مدرسة كبيرة كُتب في ''فقه السيرة'' وكتب في ''دروس وعبر من السيرة'' وفي ''دراسات في السيرة'' وأشباه

ذلك من مدارس دعوية مختلفة في الاهتمام بالسِّيرة من وجهة نظر دعوية، وكثير من هؤلاء لم يعتنوا بها من جهة ما صحّ من السِّيرة وما لم يصح، وإنَّما جعلوا السِّيرة عبرة لما يريدون من الفوائد الدعوية سواء أصحّ ذلك أم لم يصح، وسواء أثبت في العلم والفقه والعقيدة أو لم يثبت ذلك، ولهٰذا تنوَّعت الكتب في هٰذا وهٰذه مدرسة أيضًا من مدارس السِّيرة، ويمكن تسميتها بالمدرسة الدَّعوية المعاصرة في تناول السِّيرة.

◆ المدرسة الخامسة من مدارس السيرة **مدرسة الرِّوايات والقصَّة**: فإنّ كثيرين من السابقين ومن المعاصرين تناولوا السيرة علىٰ أنها روايات وعلىٰ أنها قصص، بل وربَّما تناولوا الصَّفحة الواحدة أو الصَّفحتين في السِّيرة بشيء من التفصيل وشيء من الاستطراد الأدبي فجعلوها عشر صفحات وعشرين صفحة من جهة الاستطراد، فقلبوا السير إلىٰ قصصٍ متنوِّعة لتكون لمن يقرؤها عوضا عن الروايات الهابطة وعن القصص الفارغة التي انتشرت في هٰذا العصر، فقام عددٌ ممَّن يحرصون علىٰ الإسلام وممَّن فيهم ديانة وخير علىٰ أنْ يعوِّضوا النَّاشئة في مقابلة خِضمِّ السَّيل الجارف بالروايات والقصص والحكايات بأنواع شتَّىٰ وبعضها مترجم من

الشرق وبعضها مترجم من الغرب فقابلوها بنقل السِّيرة إلىٰ قصص وروايات.

وهٰذا لا شك أنه أفاد كثيرًا من النَّاشئة؛ لكن له سلبياته، ولو تناولها بعض طلبة العلم الذي يعلمون حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله فكتبوها علىٰ شكل قصصي وعلىٰ شكل روايات لا بأس؛ لكن تكون معتمِدةً علىٰ ما يقضي به العلم والتَّحقيق فإنّ فيها نفعا كبيرا للنَّاشئة وللشَّباب والفتيات وللكبار أيضًا.

هٰذه جملة من المدارس القديمة والحديثة في تناول السيرة.

إذا نظرنا للسِّيرة؛ يعني لما كُتب في كتب السِّير من أخبار النبي ﷺ والحكايات وما حصل له -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وجدنا أنّ السِّيرة اُستُدِلَّ ببعض أحداثها وببعض ما ذُكر فيها علىٰ أمور عند أهل العلم -من علماء السَّلف والمحقِّقين من أهل العلم ممن بعدهم- يرون أنّ تلك الاستدلالات ليست بصحيحة، بل ربما كانت باطلة، بل ربما كانت شركية، وهٰذا يقُودنا إلىٰ تفصيل لهٰذا النَّوع؛ **وهو الذي يمكن أنْ تسميه أنواع من الاستدلالات الخاطئة بأحداث من السِّيرة** وهي جديرة من بعض طلبة العلم المتفرِّغين أنْ يرصُد نفسه

لجمعها فيجمع أنواع الاستدلال الباطلة ممَّا جاء في السير علىٰ أمور لا يقرها العلم الصَّحيح ولا يقول بها الأئمة والعلماء.

فمن ذلك مثلًا ما جاء في كتب السِّير أنّ المسلمين في غزوة اليمامة كان شعارهم (محمَّداه) وهٰذه ذكرها الطَّبري وذكرها ابن كثير في "البداية والنهاية" وأشباه ذلك، فقال قائلون: إنّ هٰذا يدل علىٰ جواز الاستغاثة بالنَّبي ﷺ بعد مماته؛ لأنّ معنىٰ (محمداه) يعني يا محمداه أو هو دعوة له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ولا شك أنّ الاستدلال علىٰ مسألة عقدية؛ بل علىٰ مسألة هي لُبُّ التَّوحيد وأصله وهو الاستغاثة بالله -جلّ وعلا- وحده دون ما سواه الاستدلال بمثل هٰذا علىٰ تجويز الاستغاثة بالنبي ﷺ ضربٌ لنصوص الكتاب والسنة الكثيرة المتواترة لفظا ومعنًىٰ، ضربٌ لها بخبر جاء في كتب السِّيرة، وقد استدل بهٰذا بعض المخرِّفين وبعض دعاة البدع والضَّلالات، وهٰذا لا شكَّ أنّه ناتجٌ من ظنٍّ أنه كل ما ذُكر في كتب السيرة وكل ما ذكر عن سير الصحابة فإنَّه صحيح في نفسه، وهٰذا غلط؛ فإنّ فيها أشياء نُسبت إليهم لا تصح، بل

هي غلط في التَّوحيد وغلط في العقيدة وغلط في السنة من مثل هٰذا المثال الذي ذكرته لك، ولو نظرنا في تاريخ الطَّبري الذي يورد الأشياء بإسنادها لوجدنا أنّ إسناد هٰذه الحكاية التي ذُكر فيها هٰذا الخبر مسلسل بكذَّاب ومجهول وضعيف، وهٰذا كافٍ في إبطالها من أصله، والذي يعلم دين الرَّسول ﷺ يبطلها ولو بدون النظر إلىٰ الإسناد، فإنّ الصَّحابة من كانوا ليستغيثوا بأحدٍ دون ربهم جلّ وعلا؛ يعني ممَّن لا يقدر علىٰ الإغاثة، وهم سادة هٰذه الأمة فلم يكونوا يستغيثوا بالنّبي ﷺ بعد وفاته.

هٰذا مثال؛ لأنّ هناك أنواعًا من الاستدلالات العقدية الباطلة ببعض ما يورد في كتب السِّير وكتب المغازي وأحوال الصَّحابة بعده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

أيضا من الأخطاء في أنواع ما يورد في السِّير أن الناس انتشرت فيهم أحاديث ضعيفة لا يصحُّ نسبتها للنَّبي ﷺ، بل وأحاديث ربما منكرة وباطلة؛ لأنَّها أوردت في السير، وقد قدمت لك قول الحافظ العراقي:

ولـيعلم الطالـبُ أنّ السِّـيرَ تجمع ما صحَّ وما قد أُنْكِرَ

ففي ما ورد في السيرة منكرات وأشياء منكرة، وقد عَلِم أهل العلم كثيرًا من هٰذه الأخبار بأنها ليست بصحيحة ولا يصحُّ الاعتماد علىٰ السير فيها.

فمن ذلك مثلا كثير من الحكايات في قصة "بحيرا الراهب" فإنّ أصل القصة صحيح من حيث الإسناد من حيث الرواية؛ لكن ما جاء في كتب السير منها فإنّ فيه تفصيلات لا تثبت، وإنَّما تروىٰ هكذا بلاغا بلا إسناد، وبعض جُمَلها صحيح، فأصل القصة صحيح وكثير من المحاورات التي فيها ينقلها بعض الدُّعاة وينقلها بعض الخطباء وينقلها بعض الموجِّهين علىٰ أنها صحيحة وهي ليست بصحيحة، وعليها اتكأ بعض أعداء الإسلام من المستشرقين وغيرهم في قولهم أنّ النبي ﷺ أخذ كثيرا من العلوم عن "بحيرا الراهب" وهي التي أوردها أو ذكرها – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وأصحابه، وهٰذا باطل قطعا.

ومن الأمثلة أيضا علىٰ ذلك القصَّة المشهورة أنّ النبي ﷺ حينما كان يطوف همّ رجل بقتله فكلَّمه –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فقال له ما قال في إخباره بما في نفسه من نية قتله – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وهٰذه قد ضعّفها عدد من أهل العلم.

وهٰذا النَّوع من الغلط في أخذ الأحاديث التي ترد في السِّيرة علىٰ أنها صحيحة، هناك عدد من أهل العلم نبّهوا عليه ومن المعاصرين منهم العلَّامة الألباني في كتابه ''الدِّفاع عن الحديث النبوي والسِّيرة'' وهو كتاب جيد في ذكر كثير مما يرد في السير مما لا يصح ومناقشة البوطي فيما أورده في كتابه ''فقه السيرة'' كذلك فيما علقه علىٰ كتاب ''فقه السيرة'' للغزالي المعاصر أورد كثيرًا من الأحكام وحقَّق عددًا من الأحاديث، وغيره من الشَّباب وطلبة العلم كتبوا أيضا كتابات في تحقيق بعض الأحاديث في السِّيرة.

المقصود من هٰذا التنبيه علىٰ أنَّه لا يعني ورود الحديث في كتاب من كتب السِّيرة أنّه في نفس الأمر صحيح، وإنْ تداوله العلماء بالقبول فإنَّهم يتداولونه بالإجمال لكن إذا كان المقام مقام استدلال أو مقام احتجاج فإنهم لا يريدون ذلك وإنَّما يحدثون به هكذا علىٰ ما جرىٰ عليه العلماء الأولون.

أيضًا هناك أنواع من الاستنتاجات الفقهية كان مبناها علىٰ حوادث من السِّيرة، وحوادث السِّيرة ليست أدلة في نفسها علىٰ مسائل الفقه حتىٰ تثبت تلك الحوادث، إمّا بدلالة القرآن عليها، أو بما ثبت في السُّنة من ذلك، وإمَّا بما ذكره الصَّحابة

في تفسير القرآن وتفسير السُّنَّة في تلك الأحوال، لهـٰذا نجد أنّ كثيرين أخذوا بعض حوادث السِّيرة فاستفادوا منها أحكامًا فقهية وفي الواقع هـٰذه الأحكام غلط؛ لأنّ الدَّليل عليها ليس بقائم ولا يصحُّ أنْ يكون دليلا إما لضعفه أو لنكارته أو لبطلانه وأشباه ذلك، وابن القيم رحمه الله تعالىٰ اعتنىٰ كثيرًا في كتابه "زاد المعاد" فيما ذكر من سيرة النبي ﷺ اعتنىٰ بتحقيق حوادث السيرة سواء ما كان منها في مكة أو في المغازي وتبيين الصَّحيح من الروايات من جهة الفقه والفوائد الفقهية علىٰ ذلك، فكتابه أصل في هـٰذا الباب.

أيضًا من الأغلاط في دراسة السيرة ما غَلِط به بعض المبتدئين من الدُّعاة أو بعض من لم يعتنِ بالعلم من المهتمِّين بالدعوة، فجعلوا كثيرا من مسائل الدعوة أدلَّتها من السِّيرة، ولم ينظروا فيما جاء في النُّصوص أو ما قاله أهل العلم في تلك المسائل.

مثلا: استدل بعضهم بحادثة سعد بن أبي وقاص حينما رمىٰ بحجر وشجّ وجه المشرك في مكة، قال بعضهم: إنّ هـٰذا دليل علىٰ جواز الاغتيالات. وأخذوا في مبحث الاغتيال مستندين إلىٰ هـٰذا، وهـٰذا لا شكَّ أنَّه ليس بمنهج علمي

صحيح إذْ حوادث السيرة تؤخذ للعلم بها وإنما يحتج بما صحَّ عن النبي ﷺ، أو صحَّ عن صحابته وأقرَّه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في حياته.

من الأمثلة، مثلا: ما ذكره بعضهم من أنّ اجتماع بعض الشباب في مسجد النبي ﷺ ليرىٰ رأيه في غزوة أحد أنّ هٰذا دليل علىٰ مشروعية الاعتصام في المساجد ومشروعية المظاهرات، وهٰذا لا شكَّ أنه خروج عن المنهج العلمي الصَّحيح وتلمس للمخرج، وليس لإقامة دليل يقيم الحجَّة بين العبد وبين ربه جلّ وعلا.

ومن أمثلة ذلك ما جاء في بعض كُتب السيرة من ذكر الكتمان الذي كان بين الصحابة -رضوان الله عليهم- في مكة وخلصوا منها إلىٰ أنّ هٰذا الكتمان بالتكاتم دليل علىٰ أنّ الدعاة يلجؤون إلىٰ الدَّعوة السرية وأنّ هٰذا أصل في الدَّعوة السِّرية وتنظيماتها، وهٰذا إذا عرض علىٰ العلم الصَّحيح وكلام أهل العلم والمحققين وُجد أنه ليس بدليل علىٰ ذلك، إذْ الكتمان في المسألة لا يدلُّ علىٰ الكتمان في كل شيء، وتفاصيل ذلك معروفة في كلام أهل العلم؛ في كلام ابن القيم ومن تبعه.

كذلك من المسائل الدعوية التي ذُكرت في الاستفادة من كتب السِّيرة: ما فصَّلَتْهُ بعض الفئات أنّ النَّبي ﷺ دعا في مكة ثلاثة عشر عامًا، وهٰذا يدلُّ عندهم علىٰ أنّ الدعوة يجب أنْ تكون سرية كالعهد المكي بجميع ما في العهد المكِّي من أحكام، وأنْ تكون مُدَّتُها ثلاثة عشر عامًا كما قالته بعض الأحزاب في بعض البلاد الإسلامية، فجعلوا الدَّعوة منقسمة إلىٰ عهد مكي وإلىٰ عهد مدني، والعهد المكي ثلاثة عشر عاما، ولمَّا أنشأ بعضهم هٰذه الفكرة وأنشأ حزبًا عليها وانتهت ثلاثة عشر عاما بدون تمكين لهم، قالوا هٰذا التمكين حصل للنبي ﷺ بعد ثلاثة عشر عامًا؛ لأنه هو المصطفىٰ ﷺ، فإذا لم يحصل لنا التمكين نكرر ثلاثة عشر عاما، فإذا لم يحصل نكرر ثلاثة عشر عاما، وهٰذا من البعد في الاستدلال كما هو ظاهر لكلِّ من له عقل صريح فضْلا عن أنْ يكون من ذوي الانتساب إلىٰ العلم .

كذلك بعضهم أخذ من السِّيرة تقسيمات الدَّعوة إلىٰ مراحل وجعل المجتمع الذي يعيش فيه أيًّا كان ذلك المجتمع كالمجتمع المكي، فيعاشر النَّاس بعزلة شعورية كما فعلته بعض الفئات الغالية، ويعاشر النَّاس بأنهم مشركون

أو أنه متوقَّف في شأنهم، كما تقوله جماعات التوقف والتبيُّن، وأشباه ذلك، وهٰذا أيضا من الأغلاط الكبيرة، وجدوا مستمسكا من الاستدلال؛ لكن ليس الشَّأن في وجود مستمسك من الدَّليل وإنما الشأن في أنْ يكون الدليل صحيحا ثم أنْ يكون وجه الاستدلال سليمًا، وأما ما يكون من جهة نوع الاستدلال فهٰذا يكثر في الشَّريعة حتىٰ احتجَّ بعض الناس بأنّ الخمر غير محرَّمة؛ لأنّ الله -جلّ وعلا- ما حرّمها في القرآن إنما قال: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾[1]، وهٰذا ترغيب وليس بتحريم.

إذن فلابدّ من عرض ما يتحصَّل عليه الدارس للسيرة -إذا لم يكن طالب علم ولم يكن عالمًا- يعرضه علىٰ أهل العلم هل ما استنتاجه صحيح أم لا؟ هل العلم يوافق هٰذا الاستنتاج أم لا؟ سواء كان في مسائل العقيدة، أم في مسائل السنة والبدعة، أم في مسائل الحديث الصَّحيح والضعيف، أم في مسائل الفقه والأحكام، أم في مسائل الدَّعوة؛ لأننا لن نُقيم الدين ولن نقوم بقوة في الدعوة إلاّ بعد أنْ نُصَفِّيَ منهجنا في

---

(١) سورة: المائدة.

الأخذ والاستدلال، فإذا كان المنهج في المرجعية والأخذ والاستدلال واضحًا قوينا واجتمعت الأمة واجتمع الدعاة واجتمع المهتمون بالإسلام والدَّاعون إليه علىٰ نهج سواء وسط واضح؛ لأنّ المصادر وكلام المحققين من أهل العلم واحد في ذلك لا يختلف؛ يعني في أصول هٰذه الشَّريعة وأصول الأدلة في العقائد وفي الأحكام وفي الدُّروس والعبر والعظات.

إذا تبيَّن لك ذلك فأَغْرَبُ منه أنْ نجد أنّ بعض المناوئين للشَّريعة وأعداء الملة و وأعداء الدِّين من العلمانيّين ومن الاشتراكيّين وأشباه هؤلاء وجدُوا في بعض نصوص السِّيرة ما يستدلون به علىٰ نحلهم وما يؤيد ما ذهبوا إليه:

فأهل الاشتراكية استدلوا علىٰ اشتراكيتهم بإباحة المال للجميع، وحتىٰ إباحة النِّساء للجميع، بقصة مؤاخاة النَّبيِّ ﷺ بين المهاجرين والأنصار، حتىٰ إنّ الرَّجل كان يرث أخاه لا من النَّسب ولكن الذي آخاه النبي ﷺ معه في الدِّين فورث بعضهم من بعض حتىٰ نزل قول الله جلّ وعلا: ﴿وَأُوْلُواْ

﴿ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[1] فاستدلوا علىٰ اشتراكهم في المال، وعلىٰ تنازل بعضهم عن زوجته لأخيه لو رغب، بأنّ هٰذا أصل من أصول الاشتراكية التي دعا إليها النبي ﷺ، واستدل بعضهم بوجود اشتراك النساء في الحرب مع الصَّحابة من جهة التَّمريض أو جلب الماء أو نحو ذلك، بأنّ هٰذا أصل بالقول بجواز الاختلاط المحرّم، وأنّ المرأة تعمل مع الرَّجل في أي ميدان، لا بأس بذلك في ميدان الطب أو التمريض أو في غير ذلك، وجدوا في بعض الحوادث مدخلا لهٰذا، وكلٌّ أخذ بحادث وتفقَّه فيه وأصبح فقيها وإنْ كان ليس له من تحقيق الإسلام نصيب.

إذن السِّيرة هي قصص وأخبار وحكايات فلا يسوغ الاستدلال بما جاء فيها مطلقًا حتىٰ يكون ذلك الدَّليل صحيحا من جهة ثبوته، ثم يُنظر في وجه الاستدلال.

إذا وصلنا إلىٰ هٰذا وهناك فقرات أطويها لضيق الوقت، وفي الحقيقة الموضوع مهمّ يحتاج إلىٰ مزيد بيان، لكن نخلص إلىٰ خاتمة المطاف، وذلك بذكر موضوع هٰذه

---

[1] سورة: الأنفال، الآية (٧٥).

المحاضرة **وتلخيص ما سبق بمعرفة الضَّوابط التي يجب أنْ نأخذ بها في تلقِّي السِّيرة وفي الاستدلال والفهم.**

فأول هٰذه الضوابط:

أنّ ترتب قوة مصادر السيرة علىٰ ثلاث مراتب:

١- **المرتبة الأولىٰ**: فهي للقرآن العظيم فما دلّ عليه القرآن فهو مقدَّم علىٰ غيره.

٢- **[المرتبة الثانية]**: ثم سنَّة النبي ﷺ وهي مبيِّنة وموضحة لما في القرآن، والسُّنة نعني بها ما ثبت عنه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، سواء كان من أحاديث الآحاد أم من الأحاديث المتواترة، وسواء صح سنده لذاته أو لغيره سواء حسن سنده لذاته أو لغيره، فإذا ثبت الحديث فإنَّه يؤخذ به في السيرة ويكون مقدَّما علىٰ غيره.

ويليه الأخذ بتفاسير أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم في آي القرآن أو بعض أحاديث السنة فإنهم في الغالب فسروا القرآن بعلمهم بسنة المصطفىٰ ﷺ.

٣- **المرتبة الثالثة**: ما جاء في كتب السير، وإذا وجدنا في كتب السير ما لا يتعارض مع الكتاب والسنة فإنّ لنا أنْ نأخذه وأنْ نقول بما فيه دون تردد؛ لأنّه لا يخالف الكتاب والسنة

سيما إذا اعتضد باتِّفاق العلماء عليه أو بجريانهم عليه، فإنه لا حرج علينا في ذلك، إذْ كما قال بعض أهل العلم: السير بلا شك أرفع درجة وأقوىٰ ثبوتًا من أحاديث بني إسرائيل. والنبي ﷺ رخَّص لنا في الحديث عن بني إسرائيل وقال: «**حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**» وبنوا إسرائيل لا نصدِّقهم ولا نكذبهم، وأما ما رُوي في السير مما لا يصادم نصًّا من القرآن أو من سنة العدنان -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فإنه لا بأس من القول به والأخذ به؛ لأنّ العلماء تتابعوا علىٰ قَبول ما فيها إذا لم يعارض ما جاء في الكتاب والسنة في الأصول وفي الفروع وفي السّير. **هٰذا هو الضابط الأول**.

الضابط الثاني في فهم السيرة وقراءة السيرة والنظر فيها: أنّ السيرة يُستفاد منها في أنواعٍ من الفوائد الدَّعوية والإيمانية والعلمية فينبغي لمن يقرأ السيرة أو يذكر ما فيها أنّ ينتبه لإنزال كل مسألة منزلة، فإذا كان إيراد القِصَّة وحكاية الغزوة أو ما حدث للنبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ولأصحابه المقصود منه تقوية ما في القُلوب من الإيمان ومحبة النَّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وتقوية العزَّة في قلوب أهل الإيمان وفي قلوب النَّاشئة وربطهم بسيرة المُصطفىٰ ﷺ فإنَّه لا بأس

بذلك، ويؤخذ علىٰ هٰذا القدر، ناظرًا إلىٰ الضَّابط الأول الذي ذكرناه، ثم إذا وجد في السِّيرة ما يخالف ما أفتىٰ به أهل العلم سواء في التَّوحيد أو في تفسير القرآن أو في السُّنَّة أو ما أشبه ذلك أو في الدعوة أو في الأحكام الفقهية فإنَّه لابدّ له من البيان؛ لأنّ إيراد القصَّة مع إيراد مشكل فيها من جهة الشرع أو ما هو منكر فيها من جهة الشرع والسُّكوت علىٰ ذلك لا يسوغ إذ هو نوعٌ من تأخير البيان عن وقت الحاجة إليه، وهٰذا ربَّما وقع في أنواع من الإلباس.

الجهة الثانية من هٰذا الضَّابط: الاهتمام بالجوانب الفقهية والعلمية في السِّيرة؛ بأنْ يُنظر إليها نظر علمي؛ يعني ينظر إليها طلبة العلم لا علىٰ أنَّها رواية وقصة وحكاية وهكذا؛ بل إنما يأخذها مستفيد مما جاء فيها من جهة الأحكام.

فخذ مثلا قصة الحُديبية وغزوة الحديبية؛ بل فتح الحديبية فإنّ ابن القيم -رحمه الله- أخذ في ذكر الفوائد من هٰذا الحدث الفوائد الفقهية في العبادات وفي المعاملات بل وفي أمور تتعلق بالدول وتتعلق بولاة الأمر وتتعلق بالملوك وتتعلق بالأحوال ما تَعجبُ منه، وهٰذا لا شك أنه من النظر الفقهي العظيم الذي ينبغي أنْ يتحلّىٰ به طالب العلم.

الضابط الثالث من ضوابط النَّظر في السيرة: أنّ سيرة النَّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كانت صراعا بين التوحيد وبين الشرك، وسيرته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لم تكن سيرة قائد حزب ولا ممثِّل لفئة ولا طالب دولة ولا أشباه ذلك، وإنَّما كانت صراعا في مسألة عظيمة، بل أعظم المسائل، بل أعظم المطالب وهو توحيد الله جلّ وعلا، ولهٰذا ترىٰ أنّ المحقِّقين من أهل العلم ممن انتبهوا لعظم شأن الدَّعوة للتَّوحيد كابن تيمية وابن القيم والإمام محمد بن عبد الوهاب ومن بعده، نظروا إلىٰ تلك السِّيرة وتلك الأحداث ونزّلوها علىٰ المعركة بين التَّوحيد وبين الشِّرك، وهٰذا أعظم ما يكون من الصَّواب في الاستدلال؛ لأنها واقعة، وإذا كان في يوم ما عادت الكرة للشرك ولأهله فَاندَرَسَت معالم التَّوحيد فإنّ ظهور أثر السيرة في ذلك وظهور معالم السيرة عند الناظر فيها في الفرقان ما بين أهل الشرك وأهل الإيمان ظاهر بيِّن، لهٰذا من رأىٰ كتاب السِّيرة للشَّيخ محمد بن عبد الوهاب وكتاب السِّيرة لعبد الله بن الشيخ -رحمهما الله تعالىٰ- نظر إلىٰ أنه مستفاد من جهة المعركة بين التوحيد وبين الشرك، وهٰذا استدلال صحيح في مكانه؛ لأنّه قائم علىٰ الاستدلال بالمطابقة فإنها

هي حقيقة ما كان ما بين النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وما بين أصحابه، والناس ممن نظروا في السيرة مجمعون علىٰ هٰذا وأنّ المعركة ما بين داع إلىٰ الله جلّ وعلا بل سيّد الدعاة إلىٰ الله -جلّ وعلا- بل سيِّد المرسلين -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وبين المشركين الكفار المعاندين لله -جلّ وعلا- ولرسله -عليهم صلوات الله وسلامه-، والله -جلّ وعلا- قال لنا عن نبيه: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1]، وبيَّن جلّ وعلا أن المراد من القصص العبرة، فقال جلّ وعلا: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾[2]، وهٰذا واضح معلوم في صنيع أهل العلم.

الضَّابط الرابع من ضوابط النظر في السيرة: أن يهَابَ أهل العلم وطلبة العلم والدعاة من أن يخوضوا في السيرة بلا علم، فلا يظنَّ الظانُّ أنَّ السيرة قصة تقبل الزِّيادة والنقصان، فربما سمع بعضكم بعض من يميل إلىٰ القصص والحكايات

---

(١) سورة: يوسف.

(٢) سورة: يوسف، الآية (١١١).

-سواءً من جهة التعليم أو من جهة الإلقاء- وذكر أحداثًا من السيرة وحلاَّها بزيادات من عنده ظانًّا أن باب السير باب قصص وأنه يسوغ فيه الزيادة، وهٰذا ليس بصواب؛ بل هو باطل في نفسه إذْ السيرة هي سيرة المصطفىٰ ﷺ فلا تقبل الزِّيادة علىٰ الحوادث، إذا كان يريد أن يشرح ما ثبت فهٰذا فيه من الإيضاح ومن تعليق الناس ومن أخذ العبرة والفائدة؛ لكن أن يزيد حكايات بخروج وذهاب وبذكر أحوال لم ترد في كتب السِّير ولم تصح، فهٰذا نوع من القول علىٰ الله -جلَّ وعلا- بلا علم، بل هو نوع من الكذب علىٰ النبي ﷺ، وسُمعت أحاديث في بعض الغزوات جِيءَ فيها بأشياء لم ترد أصلًا، وسُمعت أحاديث في بعض حوادث جرت في مكَّة علىٰ صحابة النبي ﷺ وبيعة العقبة؛ بل وهجرة الصَّحابة إلىٰ الحبشة وأشباه ذلك مما لم يرد أصلاً، وزيادات اقتضاها الطَّابع القصصي، وهٰذا لا يسوغ أن يعذر المرء فيه نفسه؛ لأنَّ الأمر شديد والكلام علىٰ سيرة النَّبي ﷺ نوع من الكلام علىٰ سنته والكذب فيها كذب علىٰ سنة النبي ﷺ، وأعظم ما جاء في ذلك من التَّحذير قوله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في

الحديث المتواتر «**من كذب عليَّ متعمِّدًا فليتبوَّأ مقعده من النار**».

الضَّابط الأخير من هٰذه الضوابط في النظر في فهم السيرة: أن لا يُستعجل بالنَّقد فيما يُورده أهل العلم في السير، فإن السير لها طابع، وكثيرون وهَّمُوا بعض أهل العلم أو تعقبوهم بما ليس مجالاً للتعقب واستعجلوا في ذلك، فقصص السِّير ونوع ثبوتها والاجتهاد في تأول إيرادها هٰذا كثير، فإذا لم تكن القصَّة أو السِّيرة أو الحكاية -سواءٌ عن النبي ﷺ أو عن الصَّحابة- إذا لم تكن مصادمة لنصوص الكتاب والسنة أو لم تكن باطلة من جهة العقيدة والشريعة والسنة فإن إيرادها للعلماء فيه مآخذ، فلا يأتيَنَّ آتٍ ويقول فلان يورد من السيرة ما لم يثبت، وهٰذا يورد حديثًا ضعيفًا في السيرة وأشباه ذلك، إذْ الأصل عندهم ما ذكرته لكم من التوسع في نقل السيرة إذا لم يكن ما ينقل باطلاً أو منكرًا، وهٰذا أصل عظيم لابدّ من الاهتمام به؛ لأنّ نقد أهل العلم أو الاعتراض عليهم بما ليس له حجة بيّنة غير مقبول، وربَّما سبّب أشياء غير محمودة.

الموضوع فيه زيادات؛ لكن الوقت قَصُر وتضايق.

وفي الختام أسأل الله -جلّ وعلا- لي ولكم الانتفاع بسيرة النَّبي ﷺ، وأن يعلِّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علَّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملًا وهدًى واهتداء، وأسأله جلّ وعلا أن يصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأن يصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأن يصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، وأن يجعل الحياة زيادة لنا في كل خير والموت راحة لنا من كل شر، وأسأله -سبحانه- أن يصلح ولاة أمورنا وأن يدلَّهم علىٰ الرشاد وأن يباعد بينهم وبين سبل أهل البغي والفساد، وأسأله -سبحانه- أن يجعلنا وإياهم من المتعاونين علىٰ البرِّ والتقوىٰ ومن غير المتعاونين علىٰ الإثم والعدوان، وأسأله سبحانه لي ولكم ولكل مسلم الختام الصالح الذي به السعادة الأبدية.

اللهم فاغفر جمًّا وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

۞۞۞۞

[أسئلة وأجوبة]

سؤال (٠١): هناك من العلماء من يذكر بعض سير الصَّالحين في زهدهم وصلاحهم وصلاتهم.. إلىٰ آخر ما

يكون أحيانًا معارضًا لفعله ﷺ فما موقفنا من مثل هٰذا، وجزاكم الله خيرًا؟

الجواب: الحمد لله، أفعال العلماء ليست بحجَّة علىٰ الشَّريعة، وإنَّما الحجة فيما دلَّ عليه الكتاب والسنة وفعل الصحابة -رضوان الله عليهم- إذا اجتمعوا علىٰ ذلك.

وما يُنقل في السير من أخبار بعض العلماء علىٰ أقسام:

منه ما يمكن تأوّله من مثل أنّ بعضهم كان يقوم اللّيل كله وهٰذا مخالف للسُّنة، وأنّ بعضهم كان يختم القرآن في كلّ يوم مرّة، كما نقل عن الشَّافعي أنه ختم القرآن في شهر رمضان ستين مرّة، وكما نُقل عن عثمان -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- بل صح عنه أنه ختم القرآن في ركعة من ليالي الشتاء طويلة أوتر بها وقرأ فيها القرآن كلّه، وجاء أيضا أنّ تلك الركعة كانت في جوف الكعبة وأشباه ذلك، وهٰذه تأوّلها أهل العلم وذكروها؛ أنّ أهل العلم قد يفعلون بعض الأشياء لا علىٰ وجه المداومة وإنّما أحيانًا، ولهٰذا ذكروا في مسألة ختم القرآن علىٰ حديث النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث**» أنّ هٰذا فيمن كان الغالب عليه أنّه يقرأ ذلك، أما إذا استغل موسمًا فاضلًا في زمان فاضل كرمضان أو مكانا

فاضلا فأراد أنْ يزداد من الختمات لأجل ذلك فإنّ السلف فعلوا ذلك وهٰذا جائز، وحملوا الحديث علىٰ من كان ذلك هو الغالب عليه، وكذلك في مسألة الصَّلاة وقيام اللّيل كلِّه إذا كان هٰذا هو الغالب عليه فإنَّه مخالف للسنة، أما إذا حصل له عارض وقوة قلب وتضرُّع وأشباه ذلك وفعل مثل هٰذه الأشياء مرة واحدة فإنه يكون متأولًا في ذلك والسنة قاضية علىٰ فعله.

بعض الحكايات عن أهل العلم أو عن الصَّالحين تكون باطلة في نفسها، فيكون النقل غير صحيح مثل ما نقلوا عن أحمد حكايات في الزهد موضوعة، ومثل ما نقلوا عن الشَّافعي حكايات في الزهد موضوعة كما نبه عليها العلماء، وهناك بعض ما ينقل عن الصالحين باطل شرعًا ولا يجوز الأخذ به ولا وعظ الناس به؛ لأنَّه يعطي صورة سيئة وقدوة سيئة مثل أنّ فلانًا قام يومه وليله علىٰ أكل فجلة، قال: فما وجد إلاّ فجلة، نَصَفَها بين يومين من شدة اعتنائه بالعلم، وجلس خمسة أيام لا يأكل بعد شرائه سمكة لم يحسن أنْ يطبخها أو أن يطهوها لاشتغاله بالعلم، أو أنّ فلانا أراد أنْ يخلِّص نفسه من الرّذائل فمشىٰ بصدره وبطنه حبوًا بل زحفًا

علىٰ شوك ليُعَلِّم نفسه شدة عذاب النار. وأشباه ذلك من الحكايات، هٰذه باطلة، لا يجوز أنْ تقال للنَّاس لأنها تعطي صورة سيئة وقدوة سيئة؛ بل الناس بحاجة إلىٰ سنة المصطفىٰ ﷺ، بحاجة إلىٰ سيرة الصحابة وقد قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[1] فالكمال في هديه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- والمبالغة في الرَّقائق بما لا يصح شرعا يعطي نتائج سيئة من جهة عدم حسن ظن النَّاس بالأولين أو بتكذيبهم أو بما أشبه ذلك.

سؤال (٠٢): إذا وافق الخسوف وقت صلاة الفجر واستمرّ حتىٰ طلوع الشمس هل يصلىٰ في هٰذا الوقت أم لا؟

الجواب: النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: «**فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَىٰ الصَّلَاةِ**»[2]

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (ح١٤٠١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (ح١٠٥٩)، ومسلم (ح٩١٢)، واللفظ للأحمد وغيره.

قال العلماء رتّب الفزع في الصلاة علىٰ الرؤية فأفاد فوائد منها أن المعتبر في ذلك بالرؤية، إذا رئي الخسوف والكسوف فإنه يفزع إلىٰ الصّلاة، وأمّا إذا لم يُرَ وإنما يقال بقول حسّاب أو نحو ذلك ولم ير الناس الخسوف فإنه لا يجوز أن يبتدئوا بالصلاة علىٰ قول حاسب في ذلك؛ لأنّه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- علقه كما علق شهر رمضان -يعني رؤية الهلال- بقوله: « **فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَىٰ الصَّلاةِ** » فلا يجوز الاعتماد علىٰ غير الرؤية في هٰذا.

ثم الفائدة الثانية قوله: « **فَافْزَعُوا** » رتب الفزع علىٰ الرؤية فدلّ علىٰ تقديم صلاة الخسوف والكسوف علىٰ غيرها لأن هٰذا هو السلف، فإذا اجتمعت مع صلاة الفجر كانت قبل الفجر بدقائق عشر أو أكثر أو مع الفجر فإنه تقدم صلاة الخسوف والكسوف ولا تطال جدًّا، بل يُجعل لها وقت بحيث يمكن أن تصلىٰ الفجر في وقتها، علىٰ هٰذا جرىٰ السَّلف وعمل علمائنا في هٰذه البلاد.

سؤال (٠٣): قصّة (الغرانيق) التي وردت في «مختصر السيرة» ما صحتها؟

الجواب: قصة الغرانيق رُويت من أوجه مرسلة، قال الحافظ ابن حجر: يقوِّي بعضها بعضا. والمرسل يعتضد بالمرسل، سيَّما في مثل ذلك، وقصة الغرانيق لا تناقض أو تضادّ أصلا شرعيا ولا نصا من كتاب الله جلّ وعلا ولا من سنته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، فهي من القسم الثالث ولهٰذا أوردها العلماء، بل إنّ قصة الغرانيق يمكن أنْ تكون في معنىٰ قول الله جلّ وعلا: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾[1] الآية في سورة الحج، فبيّن -جلّ وعلا- أنه ما أرسل من نبي ولا رسول إلاّ إذا تمنىٰ يعني إذا قرأ وتلا كتابه ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ يعني تكلم الشيطان بجنس صوته ليعتقد زيادة في كلامه من جهة الشَّيطان. وهٰذا ما جاء في قصة الغرانيق المعروفة في قوله -جلّ وعلا- في سورة النجم لما تلا النبي ﷺ: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠﴾[2]، جاء في القصة أنه

---

(١) سورة: الحج، الآية (٥٢).

(٢) سورة: النجم.

قال: (وإنّهنّ الغرانيق العلىٰ وإنّ شفاعتهنّ لترتجىٰ) وأشباه ذلك أو كما جاء، فجاءت زيادة فيها تصحيح عبادة غير الله جلّ وعلا، فلما سمع المشركون ذلك سجدوا، فأنزل الله - جلّ وعلا- قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾.

فإذن هٰذه القصة تداولها المحقِّقون من أهل العلم فذكرها الحافظ ابن حجر، وذكر لها أوجهًا مرسلة في شرح البخاري، وذكرها إمام هٰذه الدعوة الشَّيخ محمد بن عبد الوهاب في "مختصر السِّيرة" وذكرها العلماء ولم ينكروها، وإنما أنكرها بعض أهل العلم وإنكاره له وجهه، ولكن ليس بقاضٍ علىٰ ما رآه غيره من أهل العلم، إذْ ليس في القصَّة ما ينكر من جهة التَّوحيد، ولهٰذا أوردها أئمة التوحيد.

تركها أولىٰ خاصة عند من لا يفقه، وإذا أوردت فلها وجهها.

سؤال (٤): أفضل طريقة للتدرُّج في قراءة كتب السيرة فبماذا يبدأ طالب العلم من هٰذه الكتب بالترتيب؟ وما هو أفضل كتاب فيها؟

الجواب: الأفضل أنْ يبتدئ ''بمختصر السِّيرة'' للشَّيخ محمد بن عبد الوهاب، ''مختصر سيرة ابن هشام'' ثم بعده ''السِّيرة النبوية'' لابن كثير وفيها طول، ثم إذا نظر في ذلك وتبيّن له الصَّواب نظر في ''سيرة ابن هشام'' وما اختصر منها، وهناك كتب طويلة في السيرة مثل ''السِّيرة الشامية'' و''السيرة الحلبية'' في عدة مجلدات كالشُّروح لكتب السير.

سؤال (٥٠): هٰذه بعض الكتب يسأل بعض الإخوان عنها يقول: ما رأيكم في هٰذه الكتب في السيرة النبوية، "الرحيق المختوم"، "هٰذا الحبيب يا محب"، "رجال حول الرَّسول ﷺ".

الجواب: هٰذه الكتب نافعة: ''الرحيق المختوم'' جيّد، وكذلك كتاب أبي بكر الجزائري ''هٰذا الحبيب يا محب'' أيضا جيّد؛ لكن درج عليهم ما درج علىٰ أصحاب السِّير في بعض المسائل، فيستفاد منها كما يستفاد من غيرها، وهي أميز من غيرها، وأكثر فائدة مما ألف في السِّنين المتأخرة.

۞۞۞۞